## محمود تيمور – الرسالة

حين مات عنها زوجها، وزفت ابنتها الوحيدة إلى عروسها من بعد، تخلّت هي عن مسكنها في العاصمة، واختارت لها شقة صغيرة في ضاحية «الزيتون»، فكانت تحيا هناك في شبه عزلة، لا مؤنس لها إلا ذكريات أيامها الخوالي.

ولعل ذكرى واحدة بين ركام ذكرياتها المختلفة، ذكرى فريدة غالية، هي التي احتلّت من نفسها أعز مكان.

إنها ذكرى حادث كان أخطر ما جرى عليها من أحداث، وكان أعمقها أثراً في توجيه حياتها وحياة ابنتها الوحيدة وجهة أخرى.

وكلما استعادت مشاهد هذا الحادث أحست بابتسامة ترف على شفتيها الهادئتين .. ابتسامة العجب من تصاريف القدر!

رب خطأ تافه غير مقصود يجر المرء إلى هاوية الخراب والدمار، أو يهبه نجاة تتفتح بها صفحة جديدة في سجل الأيام.

أثمة يد خفية لربان من السحرة يُدير دفة السفينة، وهي تشق الموج في عباب الحياة؟

كم لتلك اليد من ظواهر معابثات تنطوي على تدبير حكيم!

والآن وقد انقضت سنون طوال على ذلك الحادث الفذ، يطيب للسيدة «سعدية» حرم الأستاذ «يسري» أن تبتعثه بين الفينة والفينة من غيابة الماضي، وتجلو عنه غبار النسيان لعينيها خلال حلم من أحلام اليقظة في دعة وسكون.

منذ ثلاثين عاماً ونيف، وقد جاوزت السيدة «سعدية يسري» الأربعين من عمرها، في يوم قائظ، والساعة تُقارب الثالثة بعد الظهر، بارحت دارها، قاصدة «مكتب البريد»، وإنها لتحرص دائماً على الخروج في تلك الساعة، كلما أزمعت أن تزور ذلك المكتب، وما أكثر زياراتها له، مؤثرةً جهد إمكانها جانب التخفي والكتمان.

ولم يكن اختيارها لتلك الساعة عبثاً، فهو وقت القيلولة: فيه يغفو زوجها «الأستاذ يسري» غفوة الظهر، وفيه تخلو ابنتها الوحيدة «يسرية» لاستذكار دروسها، وهو الوقت الذي لا ينشط فيه الناس لتتبع الخلق، وتقصي ما وراءهم من أسرار.

ويا له من سر، ذلك الذي تُحاول السيدة «سعدية يسري» أن تستأثر به لنفسها .. إنه سر حياتها الكبير!

ولما بلغت «مكتب البريد» توخّت «شباك الرسائل المحفوظة»، وقلبها سريع الخفوق، وسألت: أثمة رسالة باسمها؟

فلم تمض لحظات حتى مد إليها عامل البريد يده برسالة، فتناولتها في عجلة، وسرعان ما دستها في أعماق حقيبتها، وحثت الخطا إلى البيت، تنتهبها أشتات الخواطر والأفكار...

هذه رسالة ممن أولته قلبها كله، من حبيبها الأوحد...

أما لقاؤها له، فلم يكن إلا بين فترة وفترة، فهو من أهل الثغر، لا يأتي إلى العاصمة إلا لماماً. وإذا التقيا كان كل حظهما أن يتطارحا أحاديث الشوق ومناجيات الهوى، بمنأى عن أسماع الفضوليين وأنظار الرقباء.

إنها جد حريصة على أن تظل علاقتها به في طي الخفاء.
حسبها اليوم أن تحيا في أخيلة جميلة تهبها لها تلك اللقيات الخاطفة، فتشيّد منها قصور السعادة والهناء، مرتقبة يوم الخلاص، يوم تتحقق لها المتعة الكبرى في لقاء ليس بعده انفصام.
لقد واثقت حبيبها على أن تهجر عش الزوجية وتلحق به، لتقضي معه ما تبقى لهما من أيام في بلد خارجي بعيد، حيث يمارس عملاً تجاريا، يدر عليه الكسب الموفور.
ها هي ذي تنتظر منه أن يحدد الموعد .. أن يعين اليوم الذي تبدأ فيه المغامرة البهيجة الحاسمة.
كفى ما مضى من أعوام كثيرة قضتها في كنف زوجها الذي تقدمت به السن وطحنته الأعباء...
تزوّجها يافعة، لم تكد تحبو إلى السابعة عشرة، وهو يومئذ رجل مكتمل النضج يربى على الأربعين.
أليس من حقها الآن، وقد اعتصر زوجها الأناني رحيق شبابها، وكاد يلقي بها نفاية لا مأرب فيها لأحد، أن تحول بين نفسها وبين التردي في تلك الوهدة السحيقة، وهدة الإهمال والضياع، وأن تستخلص من أيامها الباقية فرصة للاستمتاع بالحياة؟..
هي اليوم في أوج ازدهارها الأنثوي، وقد غدت ابنتها فتاة في السادسة عشرة توشك أن تكون لها حياتها الخاصة بعد سنوات قلال. أما زوجها هي فقد رانت عليه شيخوخة ثقيلة لا شفاء له منها إلا بالإذعان لما تقضي به الأقدار.
ماذا تجني من عيشتها الحاضرة، إلا أن تقبع في ذلك الركن المعتم الموحش، ركن الزوجية الجدباء؟
ما أشبه هذا الزوج بطائر من طيور الأساطير علا في الأفق حينا من الدهر، يسبح في الضوء الساطع، ويملأ صدره بالهواء المنعش، ثم وهنت قواه، فانهوى جاثماً على الأرض، مرخياً جناحيه ليخفي تحتهما تلك الزوجة المنكودة، فيحول بينها وبين الاستمتاع بمباهج العيش، واستراوح نسيم الحياة.
لقد مكثت في كنفه حتى اليوم مخلصة له وفية، واستنفدت في صحبته فورة الصبا وزهرة الشباب ... وكفاها ذلك من بذل وفداء.
إن لنفسها عليها حقا، وقد آن لها أن تلبي نداء رغباتها الطبيعية المفروضة، وهي تحس الحيوية في أوصالها تضطرم، مهيبة بها أن تنطلق مع هاتف الحب، يُطرب سمعها بأغاريده العذاب.
هذه فرصة تسنح لها، ولن تدعها تفلت منها.
يممت صوب دارها محتضنة حقيبتها، كأنما هي بين يديها وليد تحميه من مخاطر الطريق.
ستحتويها حجرتها بعد قليل، وستخلو إلى رسالتها تبسطها أمامها لتقرأ النبأ العظيم.
وتابعت خطاها، وقلبها يكاد يثب بين جوانحها وثباً.
وعادت الخواطر في رأسها تتداعى.
ربما أنكر عليها منكر أن ترضى ذلك السلوك، فتهجر زوجها بعد عشرة امتدت سنين بعد سنين، زوجها الذي تعلق

بها، وتدله في حبها، وأسبغ عليها حنانه، ووفر لها عيشة هناء ورفاهية، زوجها الذي احتمل من نزقها ومن بوادرها ما يضيق به صدر الحليم، فكان يُبالغ في تدليلها والتلطف بها، محققا ما كانت تهفو إليه من مطامح وأطماع.

هذا حق، وما في مستطاعها أن تجحد منه شيئاً.

ولكن هذا الزوج لم يكن يملك أن يفعل غير ما فعل، ليسوس زوجة أضفت عليه من فتنة الأنوثة وروعة الجاذبية ما أذاقه طيب العيش، وأناله بهجة الحياة.

لقد ردّت له جميله أضعافاً مُضاعفة، ولم يبق عليها أن تضيف جديداً.

...وكانت قد بلغت الدار.

وتسللت إلى حجرتها في تلصص.

وما هي إلا أن أقفلت وراءها الباب بالمفتاح. واستخرجت الرسالة من أعماق الحقيبة، وما لبثت أن فضت الغلاف بأنامل راجفة، وما أسرع أن تصيدت عينها هذه الكلمات:

»موعدنا يوم الخميس في الثالثة بعد الظهر ... لقد أعددتُ كل شيء ... سنُسافر من فورنا إلى المكان المتفق عليه، حيث نبدأ معاً رحلة العمر، نستمرئ رحيق الحب الهنيء.«...

ووضعت الرسالة على صدرها، ودقات قلبها تتسارع، وفي خاطرها تتوارد أخيلة ومشاهد.

ولم يطل بها الوقت على هذه الحال.

عادت إلى الرسالة تقرؤها.

وفي هذه المرة اختلج جسدها اختلاجة دهشة.

أهذا خطه الذي ألف أن يكتب به رسائله إليها؟

وأقبلت على الرسالة تتفحص كتابتها تفحص فني خبير.

وكلما أنعمت النظر ودققت في الملاحظة، ازدادت من شك.

وتفاقم اضطرابها.

أتراها مكيدة ينصبها لها عاذل حسود؟

ولاحت في رأسها فكرة.

واختطفت الظرف الذي كانت تنطوي فيه الرسالة، وقرأت على ظهره ما يلي:

»الآنسة يسرية يسري. يُحفظ بشباك البريد.«

وعادت تقرأ، وتقرأ، وهي لا تصدق ما ترى.

وغامت أمام عينيها الدنيا، وتفصَّد من جبينها عرق.

وتزاحمت عليها الخواطر من كل صوب، تُناوشها بلا رحمة.

لقد كشفت عن سر ابنتها الخطير.

لولا أن موظف البريد اشتبه عليه الأمر، بين اسمها «السيدة سعدية يسري» واسم ابنتها «الآنسة يسرية يسري» لبقي ذلك السر مصوناً لا تعلم به.

هاهي ذي تعلم الساعة ـ دون قصد ـ أن «يسرية» الصغيرة لها عاشق عتيد، وهي التي لم تعدُ السادسة عشرة بعد، وإنه حقا لعاشق جريء، أعد لها عدة الهرب في تدبير وإحكام...

يا له من اتفاق رهيب!

أم وابنتها تسيران في طريق ... طريق خطيئة ودنس!

كلتاهما تزمع ما تزمع الأخرى من أمر، وتتخذ ما تتخذ من حيلة ووسيلة!

وأخذت تروّح وجهها بمنديل.

وخطت إلى النافذة تنظر

الهدوء يشمل الدار.

زوجها في حجرته يُواصل غفوته.

وابنتها على مكتبها تستذكر درسها ... درس العبث والمغامرة.

حين كانت الأم في مثل سن ابنتها تلك، كانت مثلاً للسذاجة والبراءة والصفاء، ولم تكن تعرف من المغامرات الغرامية شيئاً قل أو كثر.

إنها لتعجب كيف استطاعت ابنتها أن تعقد تلك الصلة بصاحبها، وأن تبلغ معه مرحلة حاسمة، دون أن يدري ممن حولها أحد؟!

ألم تكن الأم تُعايش ابنتها صباح مساء؟

كيف مرَّ ذلك كله، تحت أنفها وهي جاهلة به، أو ساهية عنه؟

أكان من الممكن حقا أن يصل إلى علمها نبأ، وهي التي قذفت بابنتها، منذ أعوام خلت، بين يدي حاضنة مُتهالكة عجوز؟

أكان من الممكن أن تلحظ ما يجري في الخفاء، وهي التي ظلت من أمرها في شغل شاغل؟

كل ما كان يملك عليها تفكيرها أن توفِّر لمظهرها التأنق والبهاء لتحتفظ ما استطاعت بما بقي من شبابها الذاهب مع الريح.

لقد اجتذبتها الحياة الصاخبة في مجتمعات اللهو والسمر، فانقادت لتيّارها الجارف، لا ترى في مشاغل الأسرة والدار إلا الخواء والهباء.

وجعلت السيدة «سعدية يسري» تعرض شريط حياتها؛ كيف كانت بادئ بدء أما مثالية، ترعى طفلتها أحسن رعاية،

وزوجة عفة وافية، تتعهّد زوجها أتم تعهد؟ وكيف تغيرت بها الحال، فألفت نفسها تتناءى رويداً رويداً عن ذلك الجو الألوف، جو الأسرة بما يشيع فيه من دعة ووئام؟

شد ما سحرتها تلك النزعة الجديدة التي ألقت بها في دوّامة المغامرات، تستمتع بنشوة الحب ومتعة الأحلام.

وتراءت لها في تلك اللحظة هاوية سحيقة كانت تتسع فوهتها أمام عينيها، وعن يمينها زوجها الشيخ، وعن يسارها ابنتها اليافعة، وهي تدفع بهما وبنفسها أيضاً إلى حافة الهاوية، ليسقطوا فيها جميعاً إلى الحضيض.

وترامت على المقعد تستبد بها نوبة نشيج...

واسترسلت في بكاء...

وكلما انهملت من مآقيها العبرات، اشتدت رغبتها في البكاء الحار، ولكأن روحها تغتسل في فيض دموعها، تلتمس الطهر والنقاء.

وأحست السيدة «سعدية يسري» صوتاً ينبعث من حجرة ابنتها..

إنه صرير باب ينفتح.

وهبت دفعة واحدة.

وفي لحظة كانت أمام الحجرة، فألفت «يسرية» على أهبة أن تبرح الدار.

ومثلت الأم تجاه ابنتها، وقد انعقد لسانها لا ينبس.

وقالت الفتاة، وهي تتفحّص وجه أمها في اضطراب:

. ما بك يا أمي؟ إنك تبكين!

فسارعت الأم تمسح عينيها، وقالت متهدجة الصوت:

. إلى أين أنت ذاهبة يا ابنتي؟

. إلى المتجر القريب، أشتري بعض حاجات.

. بل إلى دار البريد، لتتسلمي رسالة .. لقد تسلمتها عوضاً عنكِ!

فشحب وجه «يسرية»، وسرت في أوصالها رعشة...

وأمسكت الأم ابنتها، وقالت لها، وهي تسوقها إلى الحجرة:

تعالي نتحدث قليلاً...

...وبعد وقت خرجت من الحجرة السيدة «سعدية» وهي تحيط ابنتها «يسرية» بذراعها، على حين كانت الفتاة خافضة الرأس، كسيرة الخاطر، تجفف بقايا دمع على خديها يترقرق...

ومالت الأم على «يسرية» تقول في ملاطفة:

لقد حان أن يستيقظ أبوك ... ألا تأتين معي إلى المطهى كي نُعدَّ له قدحاً من الشاي؟!